قراءة في الخطاب الإنساني للملك الراحل

عفوية عبد اللَّه .. من (عرق النسا) إلى (تستحقون أكثر)

الجزيرة - حبيب الشمري

يرحل الملك عبد الله بن عبد العزيز وتبقى إنجازاته الكبرى على الصعد كافة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بعضها لا تخطئها العين، والبعض الآخر لا يزال في مراجل الإنجاز ستظهر تباعاً.. المشاريع العملاقة يمكن أن تتحدث عن نفسها، الإنجازات الكبرى ستكون شاهداً على عهده الذهبي، ومرحلته التاريخية، لكن شيئاً آخر سيبقى راسخاً في القلوب، هو العلاقة الإنسانية البسيطة مع شعبه، والحب المتبادل والعفوي مع الصغار والكبار. السعوديون عموماً يتذكرون عبارته الشهير عندما تحدث عنه مرضه وإصابته بعرق النسا، فقال (إن النساء لا يأتي منهن إلا كل خير)، فضجت القاعة ولهجت معها بيوت السعوديين بالدعاء له. أو تلك القصة التي رواها لأبنائه المبتعثين عندما قال (الله يطول بعمر البترول)، ولعل من آخر عباراته الشهيرة والصادقة، هو قوله تلفزيونياً عند افتتاح استاد الجوهرة إن الشباب السعودي (يستحقون أكثر وأكثر).

ترسيخ الخطاب الأبوي

الملك عبدالله بن عبدالعزيز - تغمده الله بواسع رحمته - كان ملكاً وأباً في الوقت نفسه، فكل أبناء شعبه أبناؤه وبناته الذين يجدون فيه كل معاني الحب والحنو والرأفة والرحمة، ويجدون فيه كذلك كل سمات القائد الملهم والإمام الحكيم الحريص على شعبه حرصه على عينه، كما قال مرارًا: «إن شعبي في عيني»، وهذا الحنو وهذا الكرم ينصرف إلى أبناء شعبه كما ينصرف إلى ضيوفه، كما لمس الجميع ورأوا رؤية العين.

في ديسمبر 2011 قال له الأطفال العرب بصوت واحد: نحمله بداخلنا، ونحتفظ بصورته كشاهد حب، ووفاء، مثل الغيوم البيضاء التي تساعدنا على البقاء في حكاية ولاء لهذا الوطن، تلك الصورة التي أخذت مكانها في القلوب.. لم تعد مُلكنا وحدنا.. هي صورة أصبحت ملكاً لجميع أطفال العالم، وتحديداً حين اختاره وقلّده أطفال العرب «وسام الأبوة».

إن المتأمل لهذا القائد التاريخي بإنسانيته يجعله يتساءل: أي محرض على الخير بداخله يجعله مختلفاً بذلك القدر؟، وأي عفوية بيضاء تنبع من داخله لتحرك قلبه تجاه أن يُسعد جميع من حوله، حتى وصل قلبه الكبير إلى أفئدة الأطفال؟ هؤلاء الأطفال الذين شاهدوا دموعه حينما واسى طفلاً فقد أبيه الشهيد فتدمع عيناه -تعاطفاً ومحبة-، وحينما تعاطف مع طفل مريض لم يجد العلاج فيأمر بعلاجه، وحينما تعاطف مع أطفال الحروب وأمر بإرسال كل ما يحتاجون لمساعدتهم.. فهل يكذب الأطفال؟ وهل يخونهم حدسهم في تقييم الأشخاص؟ بل إنهم الكائنات الوحيدة القادرة على تحسس الحب من الكبار، وتقديم هذا الوسام من الأطفال يدل على أنهم يشعرون بصدق هذا القائد الذي أحبهم فأحبوه، واستحق لقب «وسام الأبوة».

مواقف لا تنسى

يمتاز خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز- رحمه الله - بحب جارف، وتعلُّق كبير من السعوديين، حيث كان يقف على منهجية لا تخضع لسياسة معينة، بل تقودها عفوية أبوية نحو أفراد شعبه ومواطنيه، كصانع للتاريخ، ورجل إصلاح بمبادراته المتعدّدة التي طوّرت المجتمع السعودي منذ توليه مقاليد الحكم.

تأسست أبوية الملك عبدالله وهو يستهل عهده بطرق أبواب الفقراء في أبسط الأحياء، ويلبي دعوات البسطاء، قبل أن تتلاحق صور عديدة، وهو يشارك أبناء الشهداء دموعهم، وفي ضحكاته وملامح وجهه المريح الباعث على الأمان.

وفي موقف لا ينسى السعوديون، لم يجد الملك الأب حرجاً ليروي لطلابه المبتعثين حكايات من داخل أروقة أعلى هيئة رسمية في بلاده عن أهمية البترول في بساطته وعفويته قبل أن يختصر إستراتيجية مستقبل في قوله «أوقفتهم عن التنقيب كله، قلت ما دام البترول -ولله الحمد- فيه، وهذا الذي أقول إن الله يطول عمره، خلوا خزائن الأرض فيها لأبنائنا وأبناء أبنائنا وترثنا -إن شاء الله. وبلادكم -ولله الحمد- غنية بهذه كلها».

ومما يُذكر في السياق ذاته ما حدث في مارس 2012 لدى استقباله أعضاء مجلس الشورى، وبجانب توجيهه لهم بأداء واجبهم تجاه دينهم ووطنهم، أبدى أسفه لهم بأنه لا يستطيع أن يصافحهم أو أن يحضنهم، وكرر أسفه لهم مرارًا، في بادرة إنسانية أبوية، يندر مثالها في أي بقعة من العالم، ولم نسمع بمثلها لدى الشعوب التي تنادي بالديمقراطية وتدّعي أنها راعية حقوق الإنسان، فليس هناك لحمة بين شعب وقادته على وجه البسيطة كاللحمة بين قادة هذه الأمة وفي مقدمتهم خادم الحرمين الشريفين، وبين الشعب السعودي الكريم.

أب الجميع وحبيبهم

عندما نستمع إلى كلمات خادم الحرمين الشريفين الموجهة للشعب أو للمسؤولين ندرك بأن علاقة الحب الأصيلة التي تجمع الملك عبدالله بن عبدالعزيز وشعبه، لم تأت من فراغ أو بمحض الصدفة، بل تأسست على أشد قيم التماسك النابعة من طبيعة العلاقة العفوية والصادقة، فضلاً عن إنسانية وفراسة الملك العادل الذي شغل المواطن كل تفكيره ليضعه في أولويات اهتماماته، حتى وهو يعيش أصعب اللحظات، ولعل كلمته الخالدة «دامكم بخير.. أنا بخير» تعد المعيار الحقيقي لقياس أبعاد تلك الروابط الإنسانية المميزة، التي تتضح جلياً في قوله -رحمه الله: «أيها الإخوة المواطنون أبنائي وبناتي أبناء هذا الوطن: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. تعجز الكلمات أن تعبر عما في نفسي من مشاعر تجاهكم ومؤازرتكم لي خلال الفترة الماضية، والتي استقيت العون فيها من الله - جل جلاله - توكلاً وعزماً وصبراً، على ما قدره الله، ثم بدعائكم ومحبتكم التي أخذت مكان الصدارة في قلبي، فتجاوزت - ولله الحمد - بفضله ومنته الكثير من الصعاب، فكنتم لي العون بعد الله تبارك وتعالى».

الرابط الوجداني

إن المتتبع لكلمات وخطب الملك عبدالله يدرك أن علاقته بشعبه علاقة أبوية لها إرثان شرعي واجتماعي عميقان، يتجليان في طريقة الخطاب ونوعية الكلمات التي تحمل دلالة عميقة تجسد قوة الرابط الوجداني بين الطرفين، ومنها عندما يردد - رحمه الله تعالى - بتواضعه الجم: «إخواني وأخواتي.. أبنائي وبناتي شعب المملكة الأبي»، بل إن تلك الخطابات عادة ما تقترن بالتأكيد على مصلحة المواطن وتبديد همومه، ويتضح ذلك في العديد من الكلمات ومنها خطابه الشهير الذي وجهه للمواطنين والمواطنات بعد صدور قرار تخفيض سعر البنزين والديزل: «أيها الإخوة والأخوات الكرام، ليعلم كل مواطن كريم على أرض هذا الوطن الغالي بأنني حملت أمانتي التاريخية تجاهكم واضعاً نصب عيني همومكم وتطلعاتكم وآمالكم، فعزمت متوكلاً على الله في كل أمر فيه مصلحة ديني ثم وطني وأهلي. مجتهداً في كل ما من شأنه خدمتكم. فإن أصبت فمن الله وتوفيقه وسداده وإن أخطأت فمن نفسي، وشفيعي أمام الخالق جل جلاله ثم أمامكم اجتهاد المحب لأهله الحريص عليهم أكثر من حرصه على نفسه».

أحلك الظروف

وفي أحلك الظروف، لا يبتعد المواطن عن ناكرة الملك ولا تبرح همومه فكر هذا القائد الإنسان الذي يسعى في كل حالاته إلى تحسين وضع المواطن وتأمين الحياة الكريمة له، ونلمس ذلك من سؤاله عن المواطن وهو على السرير الأبيض وفي العديد من الكلمات التي وجهها للشعب وهو يمر بظروف صحية غير جيدة كقوله: «إخواني وأبنائي: أشكركم، وأتمنى لكم التوفيق، وأشكر كل واحد منكم رأيته وسلمت عليه، ولكن مع الأسف إنني لم أتمكن من أن أقف»، عندما نتأمل اعتذاره في هذه الكلمة للمواطنين عن الوقوف للسلام عليهم رغم معرفتهم وتقديرهم لظروفه الصحية، ندرك مدى تقديره واحترامه للإنسان السعودي، ونؤمن بأن هذا الملك الصالح لا يعفي نفسه من مسؤولياته تجاه المواطنين مهما كانت الظروف ومهما كانت أوضاعه الصحية، وهذا يؤكد أن المواطن هو الشغل الشاغل لخادم الحرمين الشريفين، يقول - رحمه الله تعالى - ذات لقاء جمعه مع الأمراء والوزراء وكبار المسؤولين وقادة وضباط الحرس الملكي، وجموع من المواطنين من أهالي منطقة مكة المكرمة ومنطقة المدينة المنورة: «إخواني، أرجوكم هذه تحياتي لشعب المملكة، شعب الوفاء وشعب الخير، شعب المقدرة شعب الأخلاق -وللـه الحمد. وأنا ما أنا إلا خادم لكم، أنا ما أنـا إلا أقل من خادم لكـم، صدقوني أنني لا أنام إلا - ولله الحمد - سائلا عن كل المناطق ما هي الحوادث فيها، وش اللي ما صار وش اللي صار. وللـه الحمد هذا ما هو كرم مني. هذا وفاء وإخلاص لكم، وحبكم لي لن أنساه، ولن أنسـاه مادمـت حياً، أشـكركم وأتمنى لكم التوفيق وأتمنى أن تعينوني على نفسي، وشكراً لكم».

كيمياء الحب

في كل عبـارة مـن كلمة خـادم الحرمين الشريفين السـابقة عنوان يحمل الكثير من الأبعاد والدروس التي يقدمها الملك الإنسان لأبنائـه المواطنين، ولا شـك بـأن كل عبارة كفيلـة بأن تجعـل عبداللـه بـن عبدالعزيز يسـكن قلـب كل مواطن ويحظى بمحبته ودعائه، فعندمـا يقـول الملك للمسـؤولين والمواطنـين في بدايـة كلمتـه «أرجوكم» فإن هـذه الكلمـة بمـا فيها مـن لطـف ورجاء تحمـل العديد من الـدلالات الإنسـانية التي تجسـد شـخصية الملك عبدالله بكل ما فيها مـن تواضـع، كمـا أن وصفـه للمواطنـين بـ«شـعب الوفاء» يكرس تلك الحقيقة لهذا الشـعب الـذي التف حـول القيـادة في أحلك الظـروف التي مـرت بها المنطقـة، ولم يأبه بمحـاولات العابثين الذين يسـعون لزعزعة الأمـن والاسـتقرار، بل كانت «ثـورة الحب» التـي رفع مـن خلالهـا المواطن السـعودي صور الملك عبدالله مصحوبة بأصدق عبارات المحبة في مسيرات للفرح والسرور، هي أكبر دليل على كيمياء الحـب الخاصة التي تربط ملك القلوب بشـعب المحبـة والوفاء، كما أن تلك الصـورة الناصعة لتواضـع ووفاء الملك تتجلى في قوله: «أنا ما أنا إلا خادم لكم»، كم هي عظيمة تلك الكلمات التي تأتي من قائد يقتدي بالرسـول الكريم الذي يقول: «سـيد القوم خادمهم، وساقيهم آخرهم شربةً».

إن اهتمام الملك الراحـل بأحوال المواطن يـبرز في كل تصرفاته، ويؤكـد ذلك من خلال قولـه: «صدقونـي أننـي لا أنـام إلا -وللـه الحمـد- سـائلاً عـن كل المناطـق مـا هـي الحـوادث فيهـا، وش اللي ما صـار وش اللي صار»، هذه العبارة التي تجسـد حرص هذا القائد على كل صغيرة وكبيرة تخص المواطن في المناطق كافة، تشعرنا كمواطنين بالفخر والاعتـزاز تجاه هذا القائد الفذ، الذي ينفض النعاس ليسـكن المواطن بديـلاً عنه في عينه ووجدانه وفكره.

المواطن والمسؤول

ويـبرز اهتمام الملـك الراحـل بالمواطن، في كل لقـاء يجمعه بالمسـؤولين، حيث يؤكد عليهـم - رحمـه اللـه - بأن يكـون المواطن في أولويـات اهتمامهم، وألا يغلقـوا الأبواب في وجهـه، وما زال الجميـع يتذكرون كلمته الخالـدة للـوزراء والمسـؤولين بعـد إقـرار ميزانية الدولـة، إذ قال: «من هنا المنبر أقول لـكل الوزراء ومسـؤولي الجهـات الحكومية كافة: لقد اعتمدت الدولة مشاريعها الجبارة ولـم تتوان في رصد المليارات لتحقيق رفاهية المواطـن، والآن يحتـم عليكـم دوركـم مـن المسـؤولية والأمانة تجاه دينكـم وإخوتكم شـعب هذا الوطن الأبي أن لا يتخاذل أحدكم عـن الإسراع في تحقيق مـا اعتمد، ولن نقبل إطلاقاً أن يكون هناك تهاون من أحدكم بأي حـال من الأحـوال، ولن نقبل الأعـذار مهما كانت».

إن هـذه اللغـة الحازمـة تؤكـد حـرص الملـك الراحل على وجوب اهتمام المسـؤولين بالمواطنـين، بعـد أن وفرت الدولـة في عهده كل ما من شـأنه تحقيـق رفاهية الموطن في المجالات كافة التعليمية والصحية والصناعية والتجارية والاجتماعية والتنموية.

ويتجلى هذا الحرص على الشعب في لقائه مـع ولي ولي العهـد - آنـذاك - الأمـير مقرن بـن عبدالعزيـز وأميري المنطقتـين الشرقية والمدينـة المنـورة سـعود بن نايـف، وفيصل بن سلمان بمناسـبة تعيينهم في مناصبهم، حيث قال لدى تشرفهم بأداء القسـم أمامه في قصره بالريـاض: «نبارك لكم ونحرصكم وأنتم لا تحتاجون إلى تحريص لخدمة الدين والوطن والشـعب، والشعب تراهم أهم شيء عندنا، شـعبكم خلـوه راضي عنكـم بالعدل والإنصاف والحق».

الداخل والخارج

وفي محطـة أخـرى تعكس حـرص الملك الراحـل على المواطن، وتؤكد أن ذلك الاهتمام لا يقتـصر عـلى الداخل، بـل يمتـد إلى حيث تواجد المواطن السعودي في كافة دول العالم، يقول الملـك مخاطباً سـفراء المملكة «أرجو أن تكونوا رسـل خير لوطنكم، وكذلك أرجو منكم أن تستعملوا مع شعبكم الذي أنتم منه الرقة وفتح باب السفارة لا إغلاق السفارة.. السـفارة مـا وجدت إلا للشـعب السـعودي وخدمة الشـعب السـعودي. أي فرد يأتيكم مهما كان اعرفوا أنه من الشـعب السعودي وأنا من الشـعب السـعودي وهو ابني وأخي لا تقولـوا هذا مـا له قيمـة، إيـاي وإياكم، قدروهـم واحترموهم لتحترمنا الشـعوب.. أنا أسـمع- ولا أتهم إن شاء الله - أن بعض السـفارات تغلق أبوابها وهذا مـا يجوز أبداً أبـداً. لازم تفتحـون أبوابكـم وصدوركـم، وتوسعون أخلاقكم للشعب السعودي».

وفي هذه الكلمة يتكرر الرجاء، لكنه هذه المرة مقترنـاً بالحـزم والتحذيـر، وكأن تلك الكلمة تجسـد شـخصية الملك عبدالله التي تجمع بـين التواضـع واللطف وبـين الحزم والهيبة والشموخ، وهي معادلة فريدة تميز بها الملك عبدالله بن القادة العرب وأصبحت علامـة بـارزة منحتـه التقدير والاحـترام في عيـون شـعبه وكنلـك الشـعوب العربية الأخرى.